



اللغة ليست من الدين، لأن مادتها من العقل، وميدانها الرأي، أما الشريعة فهي يقين! لذا سأستخدِم مصطلح الأعراف، استخداماً لغوياً، للدلالة على حالة: اجتماعية سياسية معقدة، تمثلها الفئة الصامدة من عموم السوريين، الذين طالت رقتهم، وهم ينظرون إلى سوريا وهي تحترق من تحت أقدامهم بأيدي حكامهم، وكأن القيامة تقوم على السوريين وحدهم! يتفرجون كشريك صامت، على فنون البلاء العظيم، ولا يتحركون، لأنهم يتعلّقون بالوهب، وهم يلِسون الخنوع، ثوب الأمان الكاذب، لحماية وحدة البلاد والعباد، والتسيّج الاجتماعي الذي "تخ" من كثرة ابتذال استخدامه على لسان الناعقين، والسلطة!

والأعراف في اللغة: جمع عُرْفٍ، ومنه أعرافُ الفرس، وغير ذلك من المعاني. وفي المصطلح القرآني: هو سور، أو موضع مرتفع بين الجنة والنار، والتسمية مستعارة من المعنى اللغوي! وأهل الأعراف في القرآن الكريم: ليسوا من أهل الجنة، ولا من أهل النار، بل هم في بُرْزَخٍ عالٍ مرتّعف، يرون منه أهل الجنة، ويرون أهل النار. وهم قوم تجاوزتْ بهم حسناهم عن النار، وقصّرْتْ بهم سُيّثاهم عن الجنة! ويبقون فيه إلى ما شاء الله؛ إلا أنه ليس مستقراً دائماً، لأن رحمة الله واسعة! {..... وعلى الأعراف رجال يعرِفُونَ كُلَا بِسِيمَاهُمْ ونادوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف:46].
اختار أهل "الأعراف" في سوريا، منزلتهم النائية بين منزليتين، بين السلطة، والثورة، ولاذوا بالصمت طيلة أشهر المحنّة الشديدة بدعوى الأمان، فشارك صمتهن -المُخَادِن- السلطة في قتل التائرين في وجه العسف والظلم والاستبداد الذي امتد لعقود طويلة.

هذا الأمان خارج للعقل والوجدان -لو عقلناه-. وكاذب في المعاملات التي يرقّيها أدب العوام إلى مرتبة الدين، إذ يؤمنون بأن الدين المعاملة. كيف تكون المعاملات ديناً وهي تقوم على المشاحة والنكُل؟! ومن هذا الاستدلال، سأجرّح هذا الأمان المُضلِّل، لأنَّ الإنسان في معرض نشاطه العادي يسعى بين واشِ وحاسِدِ -كما يقول المناطقة-. فكيف تكون حاله في ظل دولة الاستبداد التي تريد رعاياها أمواتاً يمشون، أو ثياباً ملونة، خالية من الأجسام والآفوس!

عجز المراقبون والمحللون عن الإمساك بأسباب هذا الصمت اللاأخلاقي المريض الذي يهين قيم الإنسان السامية. فراحوا يستعينون بالوصفات السوسيولوجية الجاهزة ويرمونها على حالة أهل الأعراف، علها تصيب، وهم بذلك ينظرون إلى المشهد كمن ينظر من نافذة الطائرة! وقد تراوحت آراؤهم بين قصور الفهم وصوابه في بعض مواطن التحليل:

تحدثوا عن الترتيب الظبي لمدينتي دمشق وحلب، اللتين تختلفتا عن الحراك الشعبي في المدن والقرى والبلدات السورية التي خرجت بنفّرة عظيمة لإسقاط النظام، وخلصوا إلى أنَّ من يملك وسائل الإنتاج، ويحتكر التجارة، وتربّطه وشائج مادية مع رجال الدين الرسميين، وبعض رموز الطبقة المتوسطة النافذة يفرضُ نمط ثقافته، وشكل حكومته التي تماهت مع

سلطة العائلة، فتعاونوا على الإثم وعلى أكل الدولة، تحت ظلال فتوى ملالي السلطة! وقد وقع في هذا الرأي الجاهز محمد حسنين هيكل، وبعض كتاب العلاقات العامة من الغربيين والعرب.

وعليه أقول، قبل تفنيد هذا الرأي الجاهز: إنَّ التاجر لا يشاركُ في السياسة إلا بالقدر الذي يستعينُ به على التجارة، وما يتراوَه يُحسبُ خيانة لرسالته! ومن هذه القاعدة الذهبية: إنَّ التاجر الذي يباع الحاكم اليوم لمصلحة مالية، سيبعَ هذا الحاكم غداً لذات السبب دون أسف عليه؟!

إنَّ تجار سوريا – ومنهم تجار دمشق وحلب الملتصقين بالسلطة كالتوائم السيامية، الذين ضمتهم "قائمة المائة" – ليسوا سوى واجهة ناعمة لسلطة العائلة التي استولت على موارد الدولة، وعلى خيرات البلاد والعباد!

وقد وضعَت السلطة في أيدي تجار الصدفة، **الوكالات الحصرية**، التي تحكر حاجات الناس والحكومة بدءاً من زر القميص، مروراً بالسكر والأرز والشاي والزيوت، وتجارة اللحوم وعلف البهائم والدواجن، وصولاً إلى النفط والغاز والإسمنت وال الحديد والاتصالات، والنقل، والعقارات، والطيران التجاري وخدمات المطارات، ومكاتب الطيران والسفر ومنفذ الحدود، والأسوق الحرة، والترانزيت، والمعامل والمصانع، والمدارس والجامعات والمستشفيات الخاصة، وتجارة المخدرات والسلاح، والمشروبات الغازية والروحية، والدخان، والنوادي الليلية وفنون الأنس، والمطاعم والسياحية، والفنادق، والإعلام المرئي، وإذاعات إف. إم، والصحافة المقرؤة الخاصة، وشركات الإعلان والبنوك، وشركات الصرافة، وشركات التأمين، والإمداد والتموين للجيش العقائدي ليقتل شعبه، والقائمة طويلة، عدا غسل الأموال وتهريب المال والذهب والماض، وكنوز الآثار السورية خارج البلاد و... و...!

إنَّ تجار الصدفة من قائمة المائة، هم عباءة لسلطة العائلة، وأشباه لا يعرفهم الجمهور العريض كسائر خلق الله الذين يملكون شركات عائلية في الدول العربية. ونشاطهم الاستثماري والتجاري الاحتكاري لم يخلق فرضاً تذكر في سوق العمل للسوريين، إذ اقتصرت شركاتهم على الأقارب والإخوان، وحلقة ضيقة من الأعون والسماسرة والشبيحة والمهربيين الذين اجتمعوا كالأكلة على القصعة، لنهب موارد الدولة وخيرات البلاد، وأخذ كل شيء من أفواه الناس وأيديهم.

أما حكومة السلطة فقد بَدَلتْ سياساتها الاقتصادية المغلقة، وتحولت خلال عقد من الزمن: من حكومة "راعية، إلى ريعية" متوجهة، تسعى بشتى الوسائل والسبل لحل مشاكلها المستعصية من مال الناس، إذ تضع يدها الطويلة في جيوب رعاياها صباح مساء، وتأخذهم رهينة لسياساتها المهلكة التي تختطف حاضرهم من بين أيديهم، وتصادر مستقبلاً لهم وأحلامهم. وفي ظلِّ هذه المَخْمَصَة ليس للناس إلا الله، والثورة على الظلم المتين!

قد يقول قائل: قياساً على ما ذكرته ليس في الشام وحلب، وسواء تجار سوق! ماذا عن الاتصالات والفنادق، والعقارات والبنوك، واقتصاد السوق الاجتماعي، و...؟ أقول : بلا! يوجد تاجر "سوء" وأثارهم باربة في حياة الناس المُضني، إذ إنَّ دخل موظف الدرجة الممتازة لا يُغطي أجر منزله البسيط، في حي متواضع، لو كان شريفاً لا يرتشي! أما امتلاك منزل فقد زال من التداول في ظل توحش المال في سوق العقارات المملوك من عصابة المائة، وأصبح حلمًا لن يطاله السوري لو عاش مائة سنة يجمع ثمنه، دون أن يأكل أو يشرب؛ وهو ينظر بعينيه الكسيرتين إلى قصور السادة الجدد، ويطلق الحسرات على العمر الذي تبَدَّدَ وضاع هباءً على يد الطفمة الفاسدة التي تسرح سهواً رهواً في طول البلاد وعرضها، لأنها لم تجد من يقول لها: لم فعلت هذا وذاك.

التجار لا يسيطرُون على المدن الكبيرة، في ظل الدولة الأمنية، فالناس رعاياها وعبدوها؛ تظلمهم أو ترحم! وحلب المعنية بالذكر، حاضنة لفقراء ريف حلب، والجزيرة، وإدلب، عرباً وكرداً، والتجار لا يملكون عليهم ميثاقاً! يمكنُ للناجر أن يشتري نمة رجل الأمن ليستعين به على تجارتة وخصوصه، ويمكن أن يسعى لتعيين رجال الدين في وظائف الأوقاف والإفتاء، وقد حدث هذا – فعلاً – بتعيين: أحمد بدر الدين حسون مفتياً للجمهورية. ويمكن أن يُوصَل بالرشى من يشاء إلى مجلس الشعب،

والوزارة، ورئاسة الوزارة، وقد وقع هذا تحقيقاً! لكن لا يمكن لتاجر الأمن هذا، أن يسيطر على جموع الفقراء، أو يمنعهم من الخروج على السلطة، وإن نجح في مكان لن ينجح في المكان الآخر بالضرورة، لذا علينا عبء الإجابة على هذا السؤال وتلمس الأسباب الحقيقة.

أما دمشق، فإن تاريخها الطويل وطبيعة سكانها جعلت منها حاضنة للحكام، وهي الآن في ظل سلطة العائلة مُختنقة من الهجرة من الريف، مدنيين وعسكريين. ومَخْنوقَة من تَمَوْضِعِ الجيش والأمن والمخبرين والسلطة المركزية فيها. وهي محاطة بإحاطة السوار بالمعصم بأكثر من ثلاثين حياً عشوائياً، يفوق سكانها عدد السكان الأصليين لمدينة دمشق! لا سلطة للتجار عليها، ولا للنخبة التي ازدرتها السلطة، وهمشتها، وأفقرتها، وأبعدتها، ثم سجنت بعض رموزها ودجّنَتهم! ولا وجود للأحزاب أو حضور للنقابات الواهية.

ومعظم هذه الأحياء المحيطة بالعاصمة امتداد حيوي لمعسكرات **جيش السلطة**، ورصيد **مُتعَسِّكٌ**، جاهز لخوض الحرب مع السلطة ضد الأهليين، وقد خرج من أحياها معظم الشبيحة، الذين يزرعون الموت في بعض أحياء الشام وريف الشام وبقية المدن السورية الثائرة.

قد تكون النقابات والاتحادات المهنية هي التي تمسك بجمهورها وتمنع خروجهما على السلطة العاتية، وأعني اتحاد ونقابات: النسائي، والعمال، والحرفيين، والأطباء، والصيادلة، والمحامين، والمهندسين، والفنانين، والكتاب، والصحفيين.... أقول: يا ليتها كانت فاعلة، هذه النقابات والاتحادات المهنية مقرات حزبية تلعب دور المخافر الأمنية الأمامية.

وجل دورها ينحصر في كونها مركز استعلام أمني، وقاعدة بيانات لرصد قطاع جمهورها ورفد الأمن بكل حركة من حركات منسوبتها، والأمن هو صاحب الولاية، يخلع وينصب، يسجن ويُفرج، ويقتل من يشاء دون عقاب!

ولأنَّ الفساد هو اقتصاد البلد النامي المُنظَّم في سوريا قد يدخلُ في الأسباب التي تمنع جمهور هاتين المدينتين اللتين تتمَّوضُعُ فيما معظم المصالح والصناعات والتجارات -من الخروج على السلطة، والالتحاق بالثورة، فجمهور المدن السورية آكل وملأ كل لا محالة، راشٍ ومرتشٍ بالضرورة، لن يقضي مصالحه إنْ لم يعمل بهذه القاعدة، وهي سياسة حكومية منهجية! والمواطن السوري الذي تُكبَّ من صنوف الفساد، استفاد من مناخه الفوضي، إذ يُرشِّي لتأمين شؤون حياته المختلفة، ويُرَتَّشِي من غيره إذا كان يَشغُلُ وظيفة تَمَسَّ حياة الناس ومصالحهم! الفساد منظومة كرَّسَها النظام؛ سوق وبazar مفتوح، وثقافة استشرتْ وسادتْ خلال عقود، حتى في ظل هذه المحنَّة الفاصلة بين مرحلتين.

قلَّبتُ الأمور في العرض والتحليل لأنَّه لألْتَمِسَ أَهْمَ الأسباب التي منعت أهل الأعراف في حلب والشام من الخروج النهائي على النظام في سوريا، وفندت الآراء التي اعتمدتُ على وصفة نظرية جاهزة، **لأخلص إلى الرأي التالي:**

الخوف من الحبس المديد، والقتلُ العمد دون رحمة يدخلان في الأسباب المانعة من الخروج على السلطة بكثافة. والذاكرة الجمعية مؤسسة على استحضار مجازر مروعة تفوق الوصف، شهدتها حلب عام 1982م، بالإضافة إلى مجزرة حماة، وإدلب، وجسر الشغور، ودير الزور، وقد عاشت دمشق أسوأ كوابيسها المريرة في مسلل التفجيرات والاغتيالات ونظام الطوارئ وانعدام الحياة الكريمة والأمل.

وأجزم أنَّ في كلِّ بيت من بيوت الناس في وسط وشمال وشرق سوريا، قد رزت به نائحة على ميت قُتل على يد جنود الأسد أو معتقل غيَّبته سجون الأسد بحبس مديد حتى يموت، أو يهرم فيَضيَّعُ ويُضيَّعُ أهله!

الخوف الذي عشش في الصدور وصار طبيعة ثانية للإنسان السوري وفظائع استبداد الفئة الباغية منعاً للجمهور الواسع من **الخروج المدوي**، الذي سيهدم الهيكل على رؤوس السدنة المارقين!

إن فرصة انتقال أهل الأعراف في سوريا من منزلتهم النائية عن الحراك الشعبي باتت واجبة، هرباً من نار السلطة الموددة، إلى جنة الحق؛ {وَإِذَا صُرِفتْ أَبْصَارُهُمْ تِلَقاءً أَصْحَابِ النَّارِ} قالوا رَبَّنَا لَا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادي أصحابُ

الأعرافِ رجلاً يَعْرُفُونَهُم بِسِيمَاهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمِيعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكِبِرُونَ} [الأعراف: 47-48].
إِنَّ صَمْتَ الْحَائِرِينَ يَقْتُلُ الثَّائِرِينَ، وَقَدْ صَارَ الْمَشْهُدُ السُّورِيُّ حَزِينًا، مَوْتٌ مَحْقُّ كَالْيَقِينِ، وَمَوَاكِبُ جَنَازَاتٍ دَائِمَةٍ،
وَنَائِحَاتٍ عِنْدَ شَوَاهِدِ الْقُبُورِ!

المصدر: الجزيرة نت

المصادر: